

غاية المطلوب

فـــي

حديث القرآن الكريم

عن القـــلوب.



د / عبد الفتاح محمد أحمد خضر

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة .

الحمد لله رب العالمين مقلب القلوب وغفار الذنوب ، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد .

فالسعادة كل السعادة في استشعار التوفيق والقبول في نجاح عمل طالما انشرح له الصدروسكنت إليه النفس ، واطمئن به القلب.

هذا العمل هو موضوع بحثي الذي عنوانه :

"غاية المطلوب في حديث القرآن عن القلوب "

فقد كان مولده على منبر القبة المتوكلية بمسجد الإمام يحيى بميدان التحرير بصنعاء عاصمة اليمن ، وقت أن كنت ممثلاً للأزهر الشريف[١]، وخطبت عن القلوب عدة خطب وتشوقت نفسي أن أصوغها في كتاب ينتفع به المسلمون بعد إخراجه من حيز الخطابة إلى حيز التخصصية ، وإضفاء صبغة الأكاديمية عليه.

حاولت هذا عدة مرات في عدة سنوات حتى أذن الله أن يخرج هذا البحث فيرى النور بعد أن ظل حبيس فكري سنوات طوال .

وكما يردد الكثير من الناس فإننا على أبواب ألفية جديدة لها معطياتها ، وأفكارها وصبغتها التي اصطبغ بها إنسان هذا الزمان الذي أصبح في مجموعه قد ينكر ما لا يحسه .

---

(١) سنة ١٩٩٣م إلى ١٩٩٧م .

فإذا تحدثت عن الضمير ، أو الخواطر ، أو القلب ، أو الصدر ، أو المعاني الإيمانية ، كالبركة ، والإخلاص ، والنية الحسنة ، والمراقبة ، إذا تحدثت عن هذا قد يُنكر عليك حديثك.

والذي ينكره واحد من اثنين إما: جاهل لا يدرك ، وشب على ذلك ويردد دون علم " إن ربك ربُّ قلوب " وهذا مسوغه لكل مالا يجوز ، يردده جهلاً بالرب سبحانه ، وأشد جهالة بالقلب الذي لا يدري إلا حروف لفظه.

وإما متعالم باع سره للشيطان ، وقلبه للهوى ، وقالبه للمادة ، إذا تحدثت معه أو سمعك في حديث عن القلب ، وإصلاح الباطن والسر وإفراغه مما سوى الله سخر منك ، ووصفك بالتخلف ، والرجعية ، والكهنوتية ، لأن منطق المعاصرة ــ من وجهة نظره ــ هو المظاهر بكل ما تحمل من مضمون مما أدى إلى خواء روحي أثر في كل مناحي الحياة سلباً. لدرجة أنه أصبح يخاف من ملاحظة الكاميرا المثبتة في حوائط وأركان المتجر ــ مثلاً ــ فلا يسرق لا لشيء إلا لأنه علم أن الكاميرا ترمقه ، وعين البشر تراه ، ولا يدرى الغافل الذي حاله هكذا أن الله الذي يعلم السر وأخفي يعلم باطنه كما يعلم ظاهره فعلمه علم إحاطة وشمول :

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ العلق١٤ :-

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقلْ خلوتُ ولكن قل على رقيبُ.

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب.

ولقد دارت في خلدي أسئلة توقفتُ عندها كثيراً طلباً للجواب مثل:-

* هل من المستساغ أن أحمل شيئا لا أدري عنه شيئاً ؟

هذا الشيء هو القلب.

* وهل من المعقول أن تحمل البشرية ـ كل البشرية ـ قلوباً ذكرها الله في قرآنه اثنتين وثلاثين ومائة مرة ما بين وصف ، وأمر، ونهي ... ورغم هذا لا تدري ما تحمل ؟

* أليس من العيب أن أحمل قلباً لا أدري صحته من مرضه ، ولا حياته من مماته ؟

* هل من المرتضى أن أقف موقف الغافل الذي لا يدري ما الفرق بين القلب عندما يذكره القرآن وينطق به الفم الشريف ، والقلب عند الأطباء وعلماء التشريح ؟

إن من الغفلة والتجوز أن يصل العلم إلى ما وصل إليه الآن ولا يُدرى أنه ربما يحمل واحد من الناس قلباً ـ هو حسياً ـ من القوة بمكان بحيث أنه لو صارع الأسد لصرعه في حين أن هذا الشخص القوي قلبه ميت ؛ لأنه خلا من لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

*** إن العلماء قد لفتوا أنظارنا إلى أهمية ومكانة القلب :**

فالإمام الحجة: أبو حامد الغزالي سبق غيره عندما لفت أنظارنا إلى أهمية القلوب وذلك بقوله عن القلب : " هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وهو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله ، وهو المطالب ، وهو المخاطب ، وهو المعاتب ، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه ، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه ، وهو المطيع ـ بالحقيقة ـ لله تعالى ، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا جهل قلبه فهو بغيره أجهل.

وهو الذي ينشر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى ، والساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ، وبإظلامه أو استنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إناء ينضح بما فيه "(٢).

والإمام **القرطبي** ـ رحمه الله ـ أورد قصة نُسبت إلى **لقمان الحكيم** تبين أطيب ما في الإنسان وأخبث ما فيه ، وهي أنه طُلب من **لقمان** أن يذبح شاة ويستخرج أطيب ما فيها ، وأن يذبح أخرى ويستخرج أخبث ما فيها.

فأخرج من الأولى أطيب ما فيها القلب واللسان.

وأخرج من الثانية أخبث ما فيها القلب واللسان.

ولما سُئل عن صنيعه الذي لم يتبدل ولم يتغير قال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا " (٣).

ويؤكد **الحكيم الترمذي** ما قاله **الغزالي** و**القرطبي** بقوله:

" اعلم رحمك الله أنه ليس من خلق الله شيء أطيب من قلب طاب بنور التوحيد والمعرفة ، والإيمان ، ولا أطهر ، ولا أنظف ، ولا أنقى ، ولا أصفى ، ولا أوسع إذا طهره الله من الأنجاس ، وتولى إحياءه بنور الحق وحفظه وحرسه ، وزاد فيه من الفوائد ، وهو قلب المؤمن ، وليس لأنواره غاية ، وليس شيء أخبث منه ، ولا أنتن ، ولا أنجس إذا خذل الله صاحبه ، ولم يتول حفظه ، ووكله إلى الشيطان ، وهو قلب المنافق والكافر ؛ لأنه معدن الشرك ، والشك والنفاق ، والريب ، والمرض"(٤).

---

(٢) إحياء علوم الدين: ٣/٣ بتصرف.
(٣) القرطبي : ٢١٨/١٤ بتصرف.
(٤) أنظر بيان الفرق بين الصدر والقلب ص٥٥.

ومن خلال سياحة علمية طويلة الأمد جُبت خلالها جنبات القرآن العظيم، وقرأت قراءة متأنية لما كتبه سادتنا المفسرون وغيرهم لم أجد مَنْ أفـــرد هذا الموضوع بالبحث التفسيرى المتخصص ــ هذا على حد علمي .

ولا أنكر أن العلماء الأمجاد قد كتبوا في هذا الموضوع ، وكانوا دليلـــي وتكأتي ــ حفظوا لنا الأصل فلهم علينا عظيم الفضل ــ وذلك من خـلال كتب عنونت نصاً بالقلوب ، وكتب تناولت هذا الموضوع من خلال بــاب من أبوابها.

فمثلاً: **أمراض القلوب لابن تيمية ، والقلوب للبيانوني ، وقوت القلــوب لأبى طالب المكي ، وأبواب من إحياء علوم الدين ، والزواجر للهيثمي ، وإغاثة اللهفان لابن القيم...** وهلم جرا.

كل هذا درسته ــ بفضل الله ــ دراسة متأنية ولكن مع تأكيدي على عدم إفراد موضوعى هذا بالتفسير الاستقصائي الموضوعي كما هو الحال هنا الأمر الذي حفزني أن أشمر عن ساعد الجد متوكلاً على ربي مستعيناً بـه سبحانه وتعالى في إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود ليسد مكانـــاً فــي المكتبة القرآنية.

* **وكانت خطتي كالآتي :**

قسمت البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة :-

المبحث الأول: تعريف القلب ، والتفريق بينه وبين ما يقاسمه من الألفاظ.

المبحث الثانى: الصفات العامة للقلب.

المبحث الثالث: أقسام القلوب.

المبحث الرابع: سنة الله في أصحاب القلوب.

الخاتمة: تناولت أهم النقاط التي تناولها البحث .

* **هذا وكانت طريقتي في خدمة النص كالآتي:-**

١- أذكر الآية أو الآيات وأعزوها إلى أرقامها وسورها .

٢- أجمل تفسير النص.

٣- أبين سبب النزول إن كان له سبب.

٤- أسلط الضوء على المراد من النص من خلال تحليل لغوي سداه ولحمته المعاجم والقواميس اللغوية بصفة عامة والتي خدمت القرآن بصفة خاصة.

٥- أذكر اللطائف والدقائق ، والتأملات التي ترفع الملل عن القارئ وتمده بعظيم النفع ، حيث إنني **لا أحبذ الأكاديمية الجافة في الكتابة.**

٦- أختم كل نقطة بخلاصة موجزة.

٧- كما قمت بخدمة الأحاديث تخريجاً وتوثيقاً.

أسأل الله أن ينفعني بما كتبت ــ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ــ كذا القارئ والناظر لهذا الحديث.

كتبه

الفقير إلى الله عزوجل

أبو روضة وعمر

عبد الفتاح محمد أحمد خضر .

طنطا ــ حصة شبشير .

في ٢٠٠٠/١/١م

المبحث الأول

ماهية القلب والفرق بينه وبين :

الفؤاد ، والصدر ، واللب ، والعقل ، والنفس ، والروح .

قبل الشروع في معترك التفريق بين القلب وقسيمه من المسميات ، حوي بنا أن نُعرّف القلب في اللغة ، والاصطلاح ؛ ليتسنى لنا الوقوف على معاني هذه الكلمة ، وبذا نفرق بينها وبين المسميات الأخرى ـ سالفة الذكر.

**** القلب لغة :**

يرى علماء اللغة(*) أن أصل معنى مادة "قلب" يرجع إلى أصلين:-

***الأصل الأول :** ما يدل على خالص شيء وشريفه.

ومنه قلب النخلة: لبها ، والقلب: أجود خوص النخلة ، وأشده بياضاً.

وقلب النخلة: جمارها ، وقلب كل شيء لبه وخالصه ومحضه.

وجاء في وصف على ـ كرم الله وجهه ـ كان على قرشياً قلباً ، أى: خالصاً من صميم قريش.

***الأصل الثاني:** مصدر قلبت الشيء أقلبه قلباً إذا رددته على بداءته.

يُقال: قلب الأمور: إذا بحثها ونظر في عواقبها.

قال تعالى: ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ.. ﴾ التوبة٤٨.

**** والقلب اصطلاحاً :**

لما كان القلب مشتركاً بين أهل الطب من ناحية وأهل الشريعة من ناحية أخرى تحتم تعريفه عند الفريقين.

(*) معجم مقاييس اللغة: قلب ١٧/٥ ، واللسان : قلب ٣٧١٥/٥ ، والقاموس نفس المادة.

* **أما في اصطلاح الأطباء :** فهو عضلة صنوبرية الشكل موضوعة في الجانب الأيسر من الصدر ، هي أهم الأعضاء في الجسم تضخ الدم ، وتعمل دون توقف منذ الأسبوع الرابع لحياة الإنسان وحتى موته[١].

* **أما عند علماء الشريعة : فيقول العلامة الجمل:** "وحيث أطلق القلب في لسان الشرع فليس المراد به الجسم الصنوبرى الشكل ، فإنه للبهائم وللأموات ، بل المراد به معنى آخر يسمى بالقلب أيضا وهو:

"جسم لطيف قائم بالقلب اللحماني قيام العرض بمحله ، أو قيام الحرارة بالفحم ، وهذا القلب الذي يحصل منه الإدراك وترتسم فيه العلوم والمعارف وهو حقيقة الإنسان ، وهو المخاطب والمطالب والمعاقب"[٢].

* **العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي :**

لعل الترابط الكلي واقع بين المعنيين اللغوي الذي دار على محورين:

الأول : أن خالص وشريف الشيء قلبه ، وهذا متحقق في الاصطلاح الطبي ، حيث إن الجسم كله تتوقف حياته على توقف نبضات القلب[٨]

(١) أنظر دائرة معارف القرن العشرين ٩٠٩/٧ وما بعدها.
وإتماما للفائدة في هذا الشأن تقول دائرة المعارف : "ووزن القلب لا يتجاوز ٢٥٠ جرام ؛ وينبض بمعدل ٧٠ ضربة في الدقيقة ، ومهمته توصيل الدم إلى شبكة من الشوايين والأوردة والأوعية الشعرية لو وضعت طرفا لطرف في خط مستقيم لبلغ طولها أكثر من ستين ألف ميل ، قاعدته إلى أعلى معلقة بنياط في الجهة اليسرى من التجويف الصدري ، وبه تجويفان : يساري به الدم الأحمر ، ويميني به الدم الأزرق المحتاج إلى التنقية ، وبكل تجويف تجويفان فرعيان يفصل بينهما صمام ويسمى التجويف العلوي الأذين، والتجويف السفلي البطين (انظر دائرة معارف القرن العشرين ــ محمد فريد وجدي ٩٠٩/٧ بتصرف ــ دار المعرفة ــ الطبعة الثالثة ١٩٧١م.

(٢) انظر الفتوحات: ٢٧/١ ، والصاوي: ٩/١ ،وأصله في الإحياء: ٣/٣ ، والألوسي ١٣٢/١ ويزيدنا المحقق الألوسي الأمر وضوحا فيقول: هي ــ أي هذه اللطيفة ــ مهبط الأنوار الإلهية الصمدانية ، وبها يكون الإنسان إنسانا ، وبها يستعد لاكتساب الأوامر واجتناب الزواجر ، وهي خلاصة تولدت من الروح الألوسي: ١٣٤/١.

(٣) [illegible] عند من يجعل ضابط الموت: موت القلب وهناك من يجعل ضابط الموت توقف خلايا المخ ، وليس هذا مقام بسطه فليتدبر .

والذي شأنه كذلك يكون أشرف وأهم ما في البدن ، وهو أيضاً متحققٌ في المعنى الشرعي لأن بين اللطيفة الربانية والقلب اللحماني علاقة الحاليَّة والمحلية أو الحرارة بالفحم ، والقلب هو أشرف ما في البدن وهذه اللطيفة هي أشرف مافيه.

والثاني: المأخوذ من قلب الشيء ورده على بداءته ، والمعنى متحد بين اللغة والإصطلاح أيضاً ؛ لأن القلب بمعناه الطبي جعله الخالقﷻ في تجويف الصدر مقلوباً [٩].

وبمعناه الشرعي يتقلب ويتحول بالخير والشر والإيمان والكفر ،وكما قيل: ما سُمي القلب إلا من تقلبه.

إذن فالمعنى في غاية الاتحاد والتعاضد في تعريف القلب لغة واصطلاحاً.

****سبب تسمية القلب بهذا الاسم :-**

* لكونه أمير البدن وعمدته ورئيسه.

* ولكونه أخلص شيء في الإنسان وأرفعه وأشرفه ، كما أسلفت.

وهو كما يقول **الألوسي** : "هدف سهام القهر واللطف ومظهر الجمال والجلال ، ولكونه يتقلب ويتحول ، فهو منشأ البسط والقبض ، ومبدأ المحو والصحو ، ومنبع الأخلاق المرضية ، والأحوال الردية ، وقلّما تستقر على حال ، وتستمر على منوال ، فهي متقلبة في أمره ، ومتقلبة بقضاء الله وقدره.

قال الشاعر:

ما سُمي القلب إلا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب وتحويل.

فتسمية الجسم المعروف قلباً ــ يضيف المحقق الألوسي ــ ليس إلا لتقلب هاتيك اللطيفة المشرقة عليه ؛ لأنه العضو الرئيس الذي هو منشأ الحرارة

(٩) دائرة معارف القرن العشرين ٩٠٩/٧ وما بعدها.

الغريزية الممدة للجسد كله ويُكنى بصلاحه وفساده عن صلاح هاتيك اللطيفة وفسادها ؛ لما بينهما من التعلق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى[١٠].

وسُمي قلباً ـ فوق ما تقدم ـ لأنه وُضع مقلوباً في موضعه يشهد لذلك علم الطب .

**** أهمية القلب:**

يكتنز القلب أهميته العظمى من خلال وظيفته الرائدة في الجسم ويكفي أن الله عز وجل.. ذكره اثنتين وثلاثين ومائة مرة ، وهذا يكسبه أهمية ليست لغيره من الأعضاء.

فهو كما يقول ابن رجب :-

ملك الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده ، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته ، وتنفيذ أوامره ، لا يخالفونه في شيء من ذلك فإن كان الملك صالحاً كانت هذه الجنود صالحة ، وإن كان فاسداً كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة ، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم .

كما لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معاً حتى تكون حركات أهلها وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته ، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله ، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله فسد ، وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب.[١١]

(١٠) انظر روح المعاني: ١/١٣٤، والقرطبي: ١٤/١١٧، فتح الباري: ١/١٠٥ وفتح المبدي ١/٨٢،٨٣. والفروق اللغوية ص ١٥٥، والكليات: ص ٧٠٣، والراغب: ص ٤١١، والقاموس القويم ٢/١٣٠.

(١١) انظر جامع العلوم والحكم ص ٢٨٤.

**** طبقات القلب :**

للقلب طبقات سبع هي :

١- الصدر : وهو محل الإسلام ، ومحل الوسواس.

٢- ثم القلب : وهو محل الإيمان.

٣- ثم الشغاف : وهو محل محبة الحق.

٤- ثم الفؤاد : وهو محل رؤية الحق.

٥- ثم حبة القلب : وهو محل محبة الحق.

٦- ثم السويداء : وهو محل العلوم اللدنية.

٧- ثم مهجة القلب : وهي محل تجلي الصفات [١٢].

**** الفرق بين القلب وقسيمه من حيث المعنى .**

(١) القلب والعقل :

ذكر القرآن الكريم مادة العقل تسعاً وأربعين مرة ، كأن القرآن الكريم يريد أن يلفت الأفهام إلى أهمية العقل وسمو مكانته.

والعقل يعرفه اللغويون بأنه: القوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال: للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة.

وأصله : الإمساك والاستمساك كعقل البعير بالعقال ، وعقل الدواء والبطن ، وعقلت المرأةُ شعرَها ، وعقل لسانه : كفه.

ومنه قيل للحصن معقل ، وجمعه معَاقِل.[١٣]

**** سبب تسميته :**

سُمي العقل بهذا الاسم ؛ لأنه يعقل النفس ، أي: يحبسها عن متابعة الهوى كما يمنع العقال الدابة من مرتعها مرعاها[١٤].

---

(١٢) انظر كليات أبي البقاء ص٧٠٤.

(١٣) انظر الراغب: ص ٢٤٢، الشهاب: ٢٩٤/١.

(١٤) انظر الفرق بين القلب والصدر للحكيم الترمذي ص ٧.

**** شرف العقل:**

أفرط العلماء في ذكر شرف العقل ، ووضعوا فيه أحاديث لا أصل لها[١٥] والعقل له شرفه العظيم ومكانته السامية ، ومما يدل علـــى ذلـــك كـــثرة أسمائه.

فمن هذه الأسماء : الحلم ــ النهية ــ الحجرــ واللب.

١- **الحلم بالكسر**: الأناة والعقل ، وجمعه أحلام وحلوم .

قال تعالى ﴿ **أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون** ﴾ الطور٣٢ .

وفي الحديث: (**ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى**) [١٦]

أي ذوو الألباب والعقول ، واحدها: حلم ــ بالكسر ــ وكأنه من الحلـــم: الأناة والتثبت في الأمور وذلك من شعار العقلاء[١٧].

٢-**النهية**: وهو العقل يكون واحدا وجمعا ، والنهية: العقل سميت بذلك ؛ لأنها تنهي عن القبيح وتدخل في المحاسن [١٨].

كما سبق في الحديث: (**ليليني منكم أولو الأحلام والنهى**)

أي العقول والألباب.

٣- **الحجر**: والحجر بالكسر العقل واللب سمي بذلك لإمســـاكه ومنعـــه وإحاطته بالتميز ، قال تعالى: ﴿ **هل في ذلك قسم لذي حجر**﴾ الفجر٥.

أي إن في ذلك المذكور الذي أقسمنا مقسما به حقيقـــا بـــالتعظيم لـــدى العقلاء [١٩].

---

(١٥) وردت أحاديث في شرف العقل وفضله مثل: (ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل) قـال ابن تيميه: إنه كذب موضوع باتفاق. وقال العراقي : سنده ضعيف.
انظر الأحياء ٨٣/١، حلية الأولياء: ٣١٨/٧، كشف الخفا: ٢٣٦/١.
وحديث: (ما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله) قال العراقي : فيه كذاب ، وقـال ابن حجر: وأكثر كتاب العقل الذي صنف موضوعـــات .أنظـــر تقريـــب التـــهذيب ص ٢٠٠، والمفردات للراغب: ص ٥٧٨ عن محققه ــ ط دار القلم الثانية ــ دمشق .

(١٦) أخرجه مسلم كتاب: الصلاة ، باب: تسوية الصفوف وإقامتها.

(١٧) لسان العرب: حلم. ٩٨٠/٢ .

(١٨) لسان العرب: نهي ٤٥٧٥/٦.

(١٩) كلمات القرآن للشيخ مخلوف ص ٤٩٩. واللسان: حجر ٧٨٣/٢.

٤- **الحجا:** العقل والفطنة والجمع أحجاء ، والحجا: ما يمنع الإنسان من الفساد ويحفظه من التعرض للهلاك .[٢٠]

* **علاقة القلب بالعقل:**

هل القلب هو العقل ؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي فما هو مكـــان العقــل ؟ القلب أم الدماغ ؟

هذا السؤال الذي حارت فيه العقـــول قديمـــا وحديثـــا نحــاول ــ قــدر الاستطاعة ــ إلقاء الضوء عليه مستدلين على ما ننتصر لـــــه بـــإذن الله تعالى.

وقبل المشروع في الجواب أجمل القول جازما بأن الجوارح ــ وإن كانت تابعة للقلب ــ فقد يتأثر القلب بأعمالها للارتباط الوثيق الذي بين الظــاهر والباطن.

ومن المدرك المسلم أن بين الدماغ والقلب رابطة معنوية ومراجعة سوية لا ينكرها من كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولكن معرفة حقيقة ذلك ــ كما يقول المحقق الألوسي ــ متعززة كما هي متعذرة في الإشارة إلى كنه ما هنالك على أربـــاب الحقـــائق وأصحـــاب الدقائق متعسرة ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، والعجز عـــن درك الإدراك إدراك[٢١].

(٢٠) اللسان: حجا ٢/٧٩٢.
(٢١) روح المعاني: ١/١٣٥.

*** أقوال العلماء في مكان العقل:**

افترق العلماء في هذا الشأن على رأيين : رأي قائل بأن العقل في القلب ، ورأي أخر يقول: إن العقل في الدماغ ، ولكل أدلته:

١- **العقل في القلب** : هذا ما ذهب إليه الأئمة: **النووي** ، **والمازرى** ([٢٢])، **والغزالى**([٢٣]).

ومن المفسرين: **القرطبي** ([٢٤]) **والشهاب**.([٢٥]) ،**والألوسي**([٢٦])ومن قبل **الرازي** وغيرهم ([٢٧]).

ولندع الإمام الرازي يتحدث وبطريقته المقنعة ليقرر أن:-

"طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو القلب ، والذي يدل على قولنا وجوه:-

(١) قوله ﷻ:﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ الحج٤٦.

وقوله تعالى ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ الأعراف ١٧٩.

وقوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ...** ﴾ ق٣٧ .

أي عقل ، فأطلق عليه اسم القلب لأنه معدنه .

(٢) أنه سبحانه وتعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب :

فقال سبحانه : ﴿**في قلوبهم مرض....** ﴾ البقرة ١٠ ، أي المنافقين .

وقال ﷻ ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ البقرة٧ .

---

(٢٢) النووي على مسلم: ٢٩/١١٠

(٢٣) الأحياء : ٣/ص ٤٠

(٢٤) القرطبي: ١٨٩/١، ٧٧/١٢، ٥٥/١٣، ٢٣/١٧

(٢٥) الشهاب: ٢٩٤/١

(٢٦) روح المعاني : ١٦٨/١٧،

(٢٧) مفاتيح الغيب: ١٦٧/٢٤، ١٦٨.

وقال ﷻ ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾ البقرة ٨٨ ، وهو قول اليهود .

وقال ﷻ: ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ التوبة ٦٤.

وقال: ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ...﴾ الفتح ١١ .

وقال: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ المطففين ١٤ .

وقال: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ محمد ٢٤ .

وقال: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ الحج٤٦

فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب ، فوجب أن يكون موضع العقل والفهم ـ أيضا ـ هو القلب.

(٣) أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب ؛ ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر وأكثر منه أحس في قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك ، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب.

وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب ؛ لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم .

(٤) أن القلب أول الأعضاء تكونا ، وآخرها موتا ، وقد ثبت ذلك بالتشريح [٢٨]

* هذا وقد احتج الفريق القائل بأن العقل في الدماغ بأمور:

(١) أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب .

(٢) أن الأعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب.

(٢٨) هذا رأى وإلا فقد ثبت أن القلب يتوقف فيموت الإنسان إكلينيكيا ولا زال المخ يؤدي وظيفته.

(٣) أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل.

(٤) أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل : إنه خفيف الدماغ خفيف الرأس .

(٥) أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف ، والأعلى هو الأشرف ، وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ .

والجواب عن الأول :

لم لا يجوز أن يقال: الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ ، ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب ، فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة ، فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب .

وتحقيقه : أنا ندرك من أنفسنا أنا إذ عقلنا أن الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه ، فإن الأعضاء تتحرك عند ذلك ، ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ .

وعن الثاني: أنه لا يبعد أن يتأتى الأثر من القلب إلى الدماغ ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه.

وعن الثالث : لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطا لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء .

وعن الرابع: أن ذلك العرف إنما كان لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته ، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال ـ أيضا ـ إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب ، أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل .

وعن الخامس : أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم ، والله أعلم.[٢٩].

---

(٢٩) انظر الفخر. ١٦٨/٢٤

*** والذي ترتاح إليه نفسي في هذه القضية :-**

أن العقل في القلب ، فنحن نعقل بقلوبنا ؟ ونفهم بقلوبنا ونجهل ـ أيضا ـ بقلوبنا.. ولا مانع أن يكون المخ ـ الذي هو في داخل الرأس وكذا الدماغ كله ـ لا مانع في كونهما مصدرين من مصادر إمداد القلب ، فالجسد كله شبكة مترابطة إذا اشتكى بعضه اشتكى كله .

أرجح ذلك لكفاية الأدلة القاضية على أننا نفهم بالقلب ونعقل به ، وكفى القرآن والسنة وأقوال المفسرين والنحاة والمتكلمين مقنعا للانتصار لهذا المنحى.

وهذا لا يقلل من وجاهة الآراء الأخرى ، فمن الزعم أن تجزم بحتمية رأي واحد في هذه القضية ، فالمهم أن نعقل ونعي مهما كان مكان التعقل والوعي.

*** اللب .**

عرفه الراغب بقوله: اللب: العقل الخالص من الشوائب.

وسمي بذلك: لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه كاللباب واللب من الشيء .

وقيل اللب: ما زكى من العقل ، فكل لب عقل ، وليس كل عقل لبا.

ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية "بأولى الألباب" نحو قوله تعالى: ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ البقرة ٢٦٩.(٣٠)

---

(٣٠) أنظر الراغب ص٤٤٦ .

*** الفرق بين العقل واللب :-**

كما بين نور الشمس والسراج فكلاهما نور، وهذا شيء ظاهر ؛ لأنك لا تكاد ترى عاقلين يستوي سلطان عقلهما ونورهما ، بل يتفاضل أحدهما على الآخر بزيادة خص هذا العقل بها مالم يبين ذلك في الآخر ، فما ظنك بمن خصه الله تعالى بمعرفته وأكرمه بلطائف بره ، وأفاض عليه بحار خيره ما لم يفض منها على غيره.

واللب لا يكون إلا لأهل الإيمان الذين هم من خاصة عباد الرحمن الذين أقبلوا إلى طاعة المولى ، وأعرضوا عن النفس والدنيا فألبسهم لباس التقوى ، وصرف عنهم أنواع البلاء فسماهم الله أولي الألباب ، وخصهم بالخطاب وعاتبهم بأنواع العتاب ومدحهم في كثير من الكتاب فقال تعالى:

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ المائدة ١٠٠ .

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا﴾ الطلاق ١٠ .

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ الرعد١٩ .

﴿ وليتذكر أولوا الألباب ﴾ ص٢٩.

فقد مدح الله تعالى أولي الألباب ، وبين مراتبهم وسرائرهم مع ربهم وفضائلهم في فقههم ، وفهمهم ، وحلمهم حتى أعجز أمثالنا عن إدراك أحوالهم ؛ لأنه خصهم بنور اللب ما لم يفعل ذلك بغيرهم[٣١].

نخلص إلى أن اللب هو العقل الخالص من الشوائب وهو بهذا داخل القلب ولا نستبعد أن يكون هو خالص الفهم الكائن في القلب.

(٣١) انظر بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد: للحكيم الترمذي ص ٧٢، ٧٣.